الإرسال الثاني:

الأنساق الفلسفية الحديثة2

الأهداف : التعرّف على التحولات التي رافقت الأنساق الفلسفية الكبرى.

- التمكن من إدراك الفرق بين مختلف أنساق الفلسفية الغربيّة
- تحصيل مقدرة بناء معارف موضوعية حول تاريخ الفلسفة الغربية
- المعارف المسبقة : الاطلاع على الفلسفات القديمة و الفلسفات الوسيطية.

محتوى المادة :

أ- المثالية النقدية "كانط "

ب- صغار المثالية – الذاتية (فيخته ، شيلنغ)

ت- المثالية المطلقة : (هيغل)

مجريات الدرس :

1- المثالية النقدية : "كانط " تمثل فلسفة كانط آخر محاولة لحلّ المشكلات التي شغلت الفلاسفة في القرنين السابع عشر و الثامن عشر. أرسى كانط القاعدة الفلسفية للعلم الحديث و قدّم حلا للعلاقة بين التصور الجديد للطبيعة ، و بين التصورات القديمة للميتافيزيقا و الأخلاق و الدين ... و سيّج القدرة على المعرفة الإنسانية بموانع و حدود، على صّعيد الطّبيعة و ما وراء الطّبيعة ، و بسط مفهوما جديدا لمقصود الميتافيزيقا ، حيث انتقل بها من كونها من المرتبة الأولى للعالم اللامادي ، إلى دراسة ذات طابع إنساني تُقارب أيّ موضوع مهما كانت ماهيته. و بغية تسليط الضوء على فلسفة كانط و إظهارها بصورة غير معهودة، و إبراز الجدّة التي اصطبغت بها أطروحاتها ، نقترح في هذه السانحة تقديم قراءة الفيلسوف " جيل دولوز " لفلسفة هذا الرجل المتوارى ، قراءة نرى أنها تقدم جديدا و من ثمة فائدة مرحب بها و هذا الذي أرجوه ، فتضيء مناطق في فلسفة "كانط " لم تكن لتعرف لولا هذه القراءة الخاصّة و تمتاز بمميزات و خصائص يقل نظيرها في قراءات أخرى. أهم هذه الخصائص أنّها قراءة جادة تتعامل مع الإنتاج الفلسفي في كثير من الأحيان بصرامة و لطف في آن معا تقدّر المجهود و تُبين عن أوجه السخاء و الإبداع الذي يميّزه. و قد أشار " دولوز " في كتابه " اختلاف و تكرار " على ضرورة أن يجدد الفيلسوف من أساليب تعبيره ، بمواجهتها لما يحدث أو يصنع في بعض الميادين، كالمسرح و السينما. " جيل دولوز " بصفته دارس لتاريخ الفلسفة ، قد كتب كتبا في هذا الميدان ، و من بين هذه الكتب كتاب خصّه لفلسفة كانط النقدية . كتاب في نظر الأستاذ " دانيال أجيراد " مثله مثل الكتب الأخرى التي تناول الفيلسوف فيها، الإنتاج الفكري لفلاسفة على غرار الفيلسوف " دفييد هيوم " ، و "سبينوزا" و "برغسون" يعتبر تمارينا لا نكاد أن نميّز فيه بين صوته و صوت هذا الفيلسوف أي كانط،

قاصدا من وراء ذلك إلى بناء جسور. و أي قارئ لكتاب دولوز هذا، سيتعذر التمييز بين أفكار دولوز، و أفكار الذي يكتب عنه و يعلّق عليه أي أفكار كانط ، كلّ هذا بدافع الشراكة أو قل التورط.[1]

في مقدمة كتاب "جيل دولوز " حول فلسفة كانط النقدية، يتطرق الفيلسوف إلى مقصود العقل بحسب كانط، و لن يكون لهذا المفهوم متسعا في الذكر، إلا حينما يُحدّد معه و برفقته المقصود بالفلسفة، و كأني بدولوز يرغب في القول أنّه من غير المتحقق تعريف العقل إلا في سياق الحديث عن الفلسفة و التعرّف عليها، و بالاستعانة بما جاء في كتاب "كانط " العمدة و على وجه[2] مخصوص إلى فقراته الأولى،

---

[1] Daniel Adjerad, Deleuze, collection dirigée par Adelino Braz, Ellipses édition, Paris. France, www.editions-ellipses.fr.

[2] - من المفيد لا على المستوى المنهجي و حسب بل أيضا على مستوى المحتوى ، تقريب كتاب كانط من القارئ باعتماد كلمات نسعى إلى أن تكون قدر الإمكان وسيلة مثلى لتسهيل إدراك مقاصد الفلسفة الكانطية، اهتديت إلى ترجمة جول بارنيه لمؤلف كانط نقد العقل الخالص، و في مستهل هذه الترجمة الفرنسية خصص الفيلسوف زهاء المائة صفحة ضمّنها توضيحا و تبسيطا و تحليلا لما جاء من أفكار هي في الكثير من الأحيان إلى أن تُقرّب إلى ذهن القارئ، فأسلوب كانط في نظر بارنيه معقد إلى درجة أنّه أحيان يصطدم القارئ بأفكار غامضة، غموض لا ينبغي أن يُفهم على أنّه ضعف يعتري فكر كانط، إنما غموض ناجم عن التجريد الحاد المشاهد على بعض الفقرات الواردة في هذا المؤلف العمدة، علاوة على لجوء الفيلسوف حينا إلى الاختزال و القفز على أفكار ربما لو توقف عندها لظهرت الفكرة في الحال واضحة و متجلية، و نحن لن نبسط كل ما جاء به بارنيه، إنما سنقدم ما يبدو لنا مناسبا و قبل هذا مساعدا و إضافة لقراءة جيل دولوز: إنّ أول ما يثير انتباه القارئ بخصوص فكر كانط، أنه جاء في لحظة تاريخية وصلت فيه الميتافيزيقا القديمة إلى طريق مسدود، طريق لا يسمح لها الارتقاء إلى مقام العلم على الرغم من ادعائها الدوغمائية، واقع يراه كانط متحقق و من ثمة يشاطر معاصريه الفلاسفة الموقف، و لكن يرى أيضا و مجافيا في ذلك إلى ما يذهب إليه معاصريه من وجوب التخلص من الميتافيزيقا، إلى أنّه بالإمكان تدارك الوضع، و تصور ميتافيزيقا جديدة و قد حاكت من حيث المنهج علوم عقلية و على رأس هذه العلوم علوم الرياضيات، إيقان كانط و إدراكه لتاريخية الأفكار، يجعل منه صاحب فكر أصيل، الأمر الثاني الذي يتوقف عنده القارئ الحذق هو تيقن كانط عدم بلوغ أفكار جون لوك فيما تعلق بالفاهمة البشرية، و المبنية على امبيريقية، الطابع العلمي الحقيقي، أفكار قد تحولت مع دافيد هيوم إلى نزعة شكية عاجزة عن تلبية مطالب العقل، فرفض هيوم للميتافيزيقا القديمة، و اكتفائه بالنزعة الامبيريقية و النزعة الشكية أفقا، لم يكن بأي حال من الأحوال حلا، إدراك كانط هذا يجعل منه صاحب فكر أصيل. ما جعل بكانط إلى طرح رؤية جديدة تُعوض رؤية أو تصور النزعة الحسية الامبيريقية للفاهمة البشرية للميتافيزيقا القديمة، أعني فكرة نقد العقل، المحددة بالضبط طبيعة و مآل هذه الملكة على أساس عناصرها المحضة أو القبلية، واضعة بذلك الميتافيزيقا في المقام نفسه الذي تحوز عليه كل من الرياضيات و الفيزياء، مقام العلم الصحيح. إن ما قام به كانط بحسب جول بارنيه – تحديدا على المستوى المنهج – هو أشبه بما أنجزه علماء الرياضيات زمن الحضارة الإغريقية، فعلى سبيل المثال فقد أخرج الحكيم طاليس المعرفة موضوع البناء القبلي إلى المفهوم، و ما أنجزه علماء الفيزياء بداية عصر النهضة من التخلص من قيد الطبيعة و سلطانها، و اعتماد التجربة و تأويلها بمقتضى مبادئ عقلية و إجبار الطبيعة على أعقاب ذلك، الاستجابة لقرارات الإنسان. هؤلاء العلماء أيقنوا أن العقل لا يدرك إلا ما يقوم هو بإنتاجه و وفق خططه. سعى كانط إلى إحكام هذه الرؤية في الميتافيزيقا، كما يُحدث ثورة شبيهة بتلك التي عرفناه في الرياضيات أولا، ثم الفيزياء. فإن كان لا يمكن تفسير حركة الإجرام السماوية التي تدور حول الأرض، فإنّه قد يكون من المناسب البحث، فافتراض أن كوكب الأرض هو الذي يتحرك فيدور حول الجرم أو النجم، على هدي هذه الرؤية، يفترض كانط استبدال الفكرة التي تفيد بأنّ جميع معارفنا تنضبط على الموضوعات، بالفكرة التي تقول: بانضباط الموضوعات على معرفتنا؛ و باتخاذه هذا المنوال اعتقد كانط حل هذا المشكل. فكيف لمعرفة قبلية أن تكون ممكنة؟ يجمل كانط الإجابة عن هذا السؤال في العبارة الآتية – عبارة تعد أساسا لمنهج جديد – " ما نعرفه قبليا عن الأشياء إلا الذي نكونه نحن أنفسنا" ليستنتج بعد ذلك، نتيجة تبدو كأنها تتعارض مع الهدف الذي ترسمه الميتافيزيقا لنفسها: " ليس بمقدورنا باعتماد هذه المعرفة، تجاوز حدود التجربة الممكنة" لأنه من جانبنا الإسهام القبلي الذي نقدمه فيما يخص معرفتنا للطبيعة يستعان به تحديدا لجعلها ممكنة و خارج هذا الاستعمال فلا معنى لها. يشير كانط إلى نوع من أنواع التجريب، دليلا مضادا لمضمون هذه النتيجة، منطوق هذا التجريب هو أنّ هناك الكثير من التشابه و ما يجريه الكيمائيين -من تجارب- و الذي ندعوه عملية الاختزال" اختبار المبادئ القبلية للعقل و اعتبارها تسلسلا وفق نظرتين مختلفتين، و من جهة يجعلنا نعرّف الأشياء في حدّ

ذاتها، و من جهة أخرى، يجعلنا نعرّف الأشياء كما تبدو لنا و بمقتضى قوانين قبلية لفكرنا، و بعبارة واحدة، الظواهر. إن حدث و وفق الحالة الأولى، أعني معرفة الأشياء في حدّ ذاتها، فنحن آنذاك أمام صراع فعلي يطال العقل و نفسه، و بحسب الحالة الثانية يختفي الصراع.
و تبعا لما تقدم شكّل كانط مؤلفه العمدة نقد العقل المحض، متناولا بالدرس و التحليل العناصر القبلية للمعرفة، و التي تهدف تحديد القيمة و المدى التي تحوزهما هذه المعرفة، قارئ المؤلف سيتبين عن كثب إمكانية إرجاع الميتافيزيقا إلى وضع ثابت كفيل بمنحه قاعدة علمية فعلية. من رغب أن يعرف قيمة هذا المؤلف، فالفيلسوف بارنيه يميّز بين الفائدة السلبية و الفائدة الإيجابية، والتي يستفيد منها القارئ، و القصد بالسلب هو رسم حدود واضحة للعقل الجدلي ينبغي أن لا يتجاوزها، و هي حدود التجربة؛ أمّا القصد بالإيجاب فيكمن في العمل على إنقاذ العقل و من ثمة من إفلاس تام كان سيلحق به لولا فضائل الكتاب العظيمة؛ فإنْ ضيّق على المعرفة فحصرها في المجال الجدلي، فإنّه بالمقابل فتح الباب

أمام الاعتقاد في الميدان الأخلاقي، و استزادة يطرح الفيلسوف بارنيه مؤشرات لعل و عسى تجعل مقاله أكثر وضوحا و أيسر للفهم.
قصد كانط من وراء كتابه العمدة الرجوع بالمعرفة إلى عناصرها القبلية حتى تُحدد قيمتها و أثرها، بالاستناد إلى الطريقة العلمية الفعلية؛ و لكن وقبل بلوغ هذا القصد، ينبغي إيجاد مسوغا تمييزيا [التمييز بين المعرفة المحضة، الخالصة، و المعرفة الامبيريقية البعدية] و الذي يُعد شرط الطريقة العلمية، في معالجة نقد الفكر الإنساني، الذي أبان عنه كانط ابتداء من مقدمة الكتاب.
في اعتقاد كانط، لا مفر من التسليم و قبول الفكرة التي تنص على أنّ جميع معارفنا تبدأ بالتجربة. إنّ ممارسة ملكة المعرفة بواسطة الموضوعات الواقعة على حواسنا، المنتجة -أي الموضوعات- بذاتها تصورات من جهة، و من جهة أخرى محفّزة لنشاطنا الفكري بفعل مقارنتها تلك التصورات، جامعة و مُفرّقة؛ و دافعة بالمادة الخام للانطباعات الحسيّة إلى تشكيل معرفة بالموضوعات و التي ندعوها التجربة. فلا معرفة تتقدم فينا إذا زمنيا عن تجربة. إن كانت جميع معارفنا التي تبدأ إلا مع التجربة، نستلزم من هذا الإخبار، تساؤلا مفاده: فهل جميعها مشتقة منها؟ . [على القارئ أن يستوقفه هذا التساؤل مستخلصا منه: أنّ هناك معرفة تنطلق من التجربة و طابعه تجريبي، و هناك بالمقابل معرفة تنطلق من التجربة أي نعم و لكن طابعها غير تجريبي، لست أدري هل هذا الفهم يستوي أم لا و هل هذا الذي قصده قارئ كانط بارنيه و من ثمة كانط هو أيضا. و قد يكون القصد أن هناك معارف و ليس كل المعارف بالمطلق، لا بداية لها إلا مع التجربة، و عليه و استلزاما من القول، هل هذا يعني أنّ هذه المعارف مشتقة من التجربة]. ألا توجد معارف قبلية، معارف لا تفسرها التجربة، و من ثمة غير مشتقة منها؟و من بين هذه المعارف ألا يوجد من لا يحتوي على أي خليط امبيريقي، و بهذا المعنى تكون خالصة تماما؟ يلجأ كانط إلى معيارين – critérium- : الضرورة و الشمولية، فيأخذهما كمسوغ للتمييز بين معارف بعدية و أخرى قبلية. التجربة تُرينا الماثل، تُعرّفنا على هذا الشيء أو ذاك؛ و لكن ليس بمقدورها أن تجيب عن السؤال لماذا هذا الشيء هو هكذا و ليس هكذا، و لماذا هو ضروريا؟ و باعتماد المنطق نفسه، بالإمكان للتجربة ملاحظة أن لا وجود لاستثناء لحدّ الآن لهذه القاعدة أو تلك، و لكن ليس بمستطاعها الجزم بأنّ هذه القاعدة كلية بالمطلق. التجربة ليس بوسعها إعطاء الطابع الشمولي المطلق لمعرفتنا، و كنتيجة يصرح كانط بأنّ هناك في معرفتنا – و ليس في عقولنا ؟ - مبادئ تكون ضرورية و شاملة – لم يلحق كانط ههنا المبادئ بالعقل إنّما ألحقها بالمعرفة، و هذا أمر ينبغي أن يستوقفنا، و يجعلنا نتساءل عن سبب اختيار كانط لفظة معرفة و عدم اختياره لفظة عقل، هذا إن كانت فعلا العبارة كانطية و ليست قراءة من لدن جول بارنيه ..- يمكن القول أنّ بعضها لم يصدر عن التجربة. و السؤال الذي يطرح هو: هل هناك أحكاما تشمل واقعيا على هذا الطابع المزدوج؟ - دخول مصطلح الأحكام على الخط – و هذا الذي تشتمل عليه جميع القضايا الرياضية.
هل ثمة في الاستعمال الأكثر عادية للفاهمة هذه القضية :"كلّ تغيّر ينبغي أن يكون له سبب"، هذا الذي حاول هيوم تفسيره بالاعتماد على التجربة، و لم يستطع من أن يحقق هذا المراد. لا تقتصر صفة القبلية على بعض الأحكام، بل النعت يصدق أيضا على بعض المفاهيم، مثال ذلك مفهوم المكان و مفهوم الجوهر؛ و بعض هذه المفاهيم ينطبق حصرا على موضوعات التجربة، و بعضها الآخر يتعالى على العالم المحسوس، كفكرة الله. و على هذا الذي يرتفع على العالم الحسيّ، تشيّد الميتافيزيقا أنساقها، من دون الأخذ بالمقاربة الكلاسيكية – فيما يخص بالميتافيزيقا - هل يمكن تصور عمل عقلي يتناول الميتافيزيقا، عمل عقلي يقوم على التحليل و النظر العقلي الذي لا يجافي مقتضيات المقاربة العلمية. عمل يكرس الميل الطبيعي الذي يشعر به

يتبيّن لنا بالفعل أنّه يستهل حديثه عن الفلسفة (الميتافيزيقا) و عن مدى محدودية قدرة العقل البشري حيث يقول :" و قد كان زمن كانت تُدعى – يقصد الفلسفة – فيه ملكة كلّ العلوم . و لو حسبنا القصد بمثابة الفعل لكانت تستحق رتبة الشرف هذه بفضل الأهمية الفريدة التي لموضوعها لكن موضة العصر الآن تريد أن لا نظهر لها إلا الازدراء"[3] أمّا تعريف الفلسفة بحسب تصور كانط و بمقتضى ترجمة أو تعريب الأستاذ موسى وهبه فهي :" علم علاقة جميع المعارف و قد ارتبطت بالغايات الأساسية للعقل البشري"[4] أمّا الأستاذ أسامة الحاج فعرّب الفقرة المتضمنة لمفهوم الفلسفة و الواردة في مؤلف "دولوز"حول فلسفة كانط النقدية :" علم العلاقة بين كل المعارف و الغايات الجوهرية للعقل البشري "[5] و يزيد كانط على هذا التعريف، تعريفا آخر، قد ثبّته في مستوى غير ذاك المستوى الذي وضع فيه التعريف الأوّل :" الحبّ المختبر من قبل الكائن للغايات القصوى للعقل البشري" التعريف هذا قمنا نحن بتعريبه، مع الإشارة أنّ هناك بعض الاختلاف بينه و بين التعريب المقدم من قبل الأستاذ أسامة الحاج، مع ملاحظة أننا لن نفتح باب سؤال الترجمة، لأنه، إن فُتح سيطول المقام فيه، و هذا ليس قصدنا و لا ما نرجو بلوغه. لكن نتساءل لماذا كانط لم يقتصر على تعريف واحد للفلسفة؟ و لماذا دولوز من جانبه لم يكتف ببسط تعريف واحد، حتى و إن علم بوجود تعريفين على الأقل لمصطلح فلسفة؟ هل هناك داعي أو دواعي دفعته إلى ذلك، أو مسوغات حرّكته كي يذكر التعريفين ؟ من الدواعي التي قد تدفع فيلسوف مثل كانط إلى ذكر التعريفين، و من ثمة تُلزم القارئ "دولوز" على بسطهما، هو إبراز فالتأكيد على أهمية و قيمة الفلسفة في سياق الازدراء التي عانت منه زمن "كانط" و دورها المحوري في تشييد المعارف على أسس صحيحة و متينة.

استزادة في الإفهام و استجابة لمنطق يُسيّر مؤلف " دولوز " يعرض إلى مقصود العقل بحسب التيار الإمبريقي، فينطلق في مسعاه بنفي أن يكون العقل ملكة أغراض عند أمثال الفيلسوف "هيوم"؛ فأصالة العقل عند ممثلي هذا التيار في تحقيق أغراض (منافع) مشتركة للإنسان و الحيوان، فالعقل ملكة

الإنسان منذ عهود سحيقة؛ و يسمح بتوسيع آفاقه المعرفية، و جلب له إمتاعا و مؤانسة، في مجال اللامتناهي، محاكاة و تأثرا بعلم الرياضيات؛ و بذلك يضمن للعمل المأمول خلوه من التناقض، أكان ذلك التناقض، منشأه التجربة، فالتجربة لا مكان لها في أي ميتافيزيقا مرتقبة، أو كان ذاك التناقض، يعتري نسيج الأفكار ذاتها. يقول كانط :" و قد تتخيل اليمامة الخفيفة، و هي تشق الهواء الذي تشعر بمقاومته في طيرانها الحرّ أنها ستنجح على نحو أفضل في الخلاء، هكذا غادر أفلاطون العالم الحسيّ لأنه يضع أمام الفاهمة حدودا بالغة الضيق، فجازف خارج هذا العالم على أجنحة الأفكار في خلاء العقل المحض. و لم يلاحظ أنّ جهوده لم تجعله يتقدّم في الطريق لأنّه لم يكن لديه أيّ موضع يرتكز إليه لاستعمال قواه كي يحقق نقلة لعقله" [عمانوئيل كنط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص48] .. و عليه كيف للفاهمة البشرية التوصل إلى هذه المعارف القبلية؟ ما قيمتها و ما هو أثرها و الثمن المؤدى؟ كل هذه الأسئلة تجمل بكيفية ما مضمون كتاب كانط العمدة. اقتباس و ترجمة شخصية عن :
Emmanuel Kant, critique de la raison pure tome premier traduit de l'allemand par Jules Barni, Germer Bailliere libraire éditeur, paris, 1869.

[3] - عمانؤيل كنط،نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبه، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص25.

[4] - عمانؤيل كنط، المرجع التابق، ص25.

[5] - جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،ط1. 1997. لبنان.ص05.

توضيب أو تنسيق -agencement-[6] وسائل غير مباشرة. بينما الثقافة هي مكيدة ، حساب و موارية. ما نلاحظه أن الفهم الإمبريقي يضع مقابلة العقل و الثقافة، فيحيل إلى العقل وظيفة " تقنية " ، و يلحق بالثقافة الدور العملي ذي الصبغة الاجتماعية، من دون إغفال أن للوسائل الأصلية أثار على الأغراض – ينبغي الإشارة إلى أنّ دولوز أثناء بسطه للموقف الإمبريقي، لم ير مناسبا إفادتنا بدلالة الوسائل غير المباشرة و الوسائل الأصلية. ذكر المقصود بالعقل من وجهة نظر إمبيريقية تتضح وظيفته، عندما يؤكد "كانط" على وجود أغراض للثقافة، و أخرى خاصّة بالعقل، و من ثمّة فإنّه هو أيضا يُميّز من حيث الوجود بين العقل و الثقافة، مردفا أنّ هناك أغراض ثقافية موصولة بالعقل هي نهائية إطلاقا. و لغرض التبيان يعود دولوز إلى قول كانط الوارد في كتابه " نقد ملكة الحكم " بحوزتنا ترجمات ثلاث للقول، الأولى :" إنّ الغاية الأخيرة هي غاية بحيث لا تستطيع أن تكفي لانجازها و لتحقيقها بالتوافق مع الفكرة، لأنّ هذه الغاية مطلقة" – ترجمة أسامة الحاج – الثانية :"إنّ الغاية النهائية لا يمكن أن تكون غاية تكفي لإنتاجها وفق فكرتها لأنها غير مشروطة"[7] – ترجمة سعيد الغانمي - [اعتمد المترجم سعيد الغانمي على ترجمات خمس باللغة الانجليزية لمؤلف كانط. و أثناء التقديم لترجمته يشير إلى وجود ترجمة متوفرة قام بها الأستاذ غانم هنا، منوها بالعمل، و لكن ملاحظا أنّ ترجمة الأستاذ تضم :" خلل اصطلاحي يتخلل الكتاب بكامله، فقد رأينا أن كانط يميز بين الغرضية، التي يرى أنها إمكان استخدام الأشياء لتحقيق أغراض كجزء من ملكة الحكم التأملية، بينما هو يعترض بقوة على الغائية، التي ترى إمكان تصور غايات توجد لتحقيقها الأشياء. غير أن هذا التمييز يغيب غيابا مطلقا في الترجمة العربية. و السبب أن الترجمة نقلت كلا المصطلحين بكلمة (الغائية) فصار يبدو للقارئ أنه يقرأ وصفا حياديا للغائية في الجزء الأول من الكتاب، (و هو في الحقيقة وصف للغرضية) و يقرأ انتقادا لها في الجزء الثاني."[8] لا يتوقف الأستاذ سعيد الغانمي في تجريحه، بل يجرّح أيضا في ترجمة الأستاذ أسامة الحاج لمؤلف دولوز المتعلق بفلسفة كانط النقدية، و التي لم يميّز فيها بين المصطلحين المذكورين أعلاه، من جانبنا علينا أن نقول أنّ الأستاذ غانم هنا، و استنادا إلى مقدمة الكتاب أشار بوضوح إلى أنه قام بالتعريب، بالاعتماد على الطبعة الثانية -باللغة الألمانية – بينما الأستاذ الغانمي اعتمد على الترجمة الانجليزية كما ذكر هو نفسه. الأستاذ أسامة الحاج كان كلما قرأ كلمة " finalité " واردة في الأصل عرّبها إلى الغائية، و متى قرأ كلمة " intérêt " عرّبها بمصالح، و عرّب كلمة" fin" بالغاية أيضا، و أظن أنّ الأستاذ الغانمي كان يقصد هذا، كل هذا، يدلل على أنّ عملية الترجمة ليست بالعملية الهينة، و التي لا يقدر القيام بها أيّ الشخص قد تمكّن فقط من ناصية اللغتين، بل المهمة أكبر من ذلك بكثير. و أي مسعى في هذا

---

[6] - التنسيق أو التوليف هو مجموعة فرادات .. أو التئام للفكرة التي لنا عن الشيء ذاته و حقول الممكنات التي تنشأ بين وعينا و الشيء .. و لهذا فإن التوليف يتموقع دائما في حركة تحول و يخلق استباحات حمى و إعادة تأليف حمى. عن : | cybercultures - studies CCC 09-10 vocabulaire de Deleuze | NP | 16/11/09 | p.4/4

[7] - إمانويل كانط، نقد ملكة الحكم ، ترجمة سعيد الغانمي ، منشورات الجمل ، ط1 ، 2009، لبنان ، ص،ص 375،376.

[8] - إمانويل كانط، المرجع السابق، ص28.

الاتجاه يعتريه ما يعتريه. و لكن وجب التنويه أن ترجمة إنتاج كانط الفكري يستدعي تضافر للمجهود اللغوي و الفلسفي .. نظرا لصعوبة و غموض في الكثير من الأحيان أسلوب كانط و طريقته في الكتابة، و هذا ما يعاني منه مترجمون آخرون غير عرب..] الترجمة الثالثة: " إنّ الغاية الأخيرة. غاية ليس بمقدور الطبيعة أن تكفي لتحقيقها وفق فكرتها لأن [هذه الغاية] غير مشروطة بشرط"[9]. يعتمد كانط على ثلاثة أنواع من الحجج للتدليل على وجاهة ما يذهب إليه؛ النوع الأول : حجة القيمة منطوقها إن كان العقل لا يستخدم إلا لإنجاز غايات الطبيعة، فما الفرق حينئذ بين العقل بوصفه قيمة سامية و الحيوانية (من المؤكد ستكون له [العقل] منفعة و استعمالات طبيعية، غير أن وجوده مرتبط بغرض أرفع من المصدر الذي يستمد منه قيمته) . النوع الثاني : حجة الخُلف منطوقها إنْ كانت قد أرادت تحقيق أغراضها الخاصة، في كائن عاقل كان حريّ بها ،في هذه الحالة، أن لا تثق بالجانب العاقل فيه و في المقابل كان الأجدى بها العودة إلى الغريزة أتعلق الأمر بالوسائل كما هو كذلك بالنسبة للغرض. النوع الثالث : حجة التنازع مفادها إن كان العقل غير ملكة وسائل، سيصعب علينا إدراك كيف لنوعين من الأغراض التعارض في الإنسان، على اعتباره نوعا حيوانيا و باعتباره نوعا أخلاقيا، مثال ذلك لن أكون طفلا من وجهة نظر الطبيعة، إن كنت قادرا على الإنجاب؛ و لكن سأظل طفلا من وجهة نظر الثقافة، ما لم أكن حائزا على حرفة، و عليّ حينئذ أن أتعلم.

يدخل "دولوز" على الخط مع ورود الفقرة الخامسة، موقف التيار العقلاني بشأن العقل و ما ينجزه، و لكن و قبل الإفصاح و نشر الموقف، يكون حريّ بنا الرجوع إلى الوراء قصد تشكيل فكرة جامعة لما ذُكر لغاية الآن، فدولوز و هو يبين أو كما يقال يميط اللثام عن الموضوع، أعني فلسفة كانط النقدية، حدّد أوّلا المقصود بالعقل، بحسب كانط، و عوض أن يكتفي بتعريف واحد، فضّل تقديم تعريفين مختلفين من حيث المستوى، مستوى أوّل ندعوه المستوى الخارجي، الذي يُعنى بالوظيفة التي تلحق بالعقل،المستوى الثاني ندعوه المستوى الداخلي، وظيفته الكشف عن العنصر العاطفي. فالتعقل يجعل شعور الحب وارد يرنو السمو و العلا. و لكي يعطي زخما لرؤية كانط، مادامت فلسفته هي محطّ النظر و التحليل، يبسط بمقدار موقف التيار الأمبيريقي (التجريبي) حول مفهوم العقل، و بتسليطه الضوء على موقف هذا التيار، يسعى دولوز و بطريقة غير مباشرة إلى توضيح و تفصيل أكثر لما جاء به كانط و تعزيز له، و ما يؤكد هذا، أنّه بعرض موقف التيار التجريبي، يعود دولوز فاسحا المجال لكانط مجددا لنقد موقف أصحاب التيار التجريبي. و تحديدا موقفهم حول العقل و الثقافة، منوها في هذا الصدد أنّ الأغراض الثقافية للعقل و حسب هي الجديرة بحمل صفة الأغراض النهائية. و جاءت الفقرة الموالية، فقرة حجاجية تُمكّن لما قيل أعلاه.

كما فعل دولوز مع التيار التجريبي، يُقْدِم على الأمر نفسه مع التيار العقلاني، فبالنسبة للعقلانيين، الكائن العاقل يمضي قدما نحو تجسيد أغراض عقلية خاصّة، و ما يتم إدراكه بواسطة العقل على أنّه غرض، هو

---

9 - إمانويل كَنْت،نقد ملكة الحكم ، ترجمة د. غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، ط1 ، لبنان 2005، ص 397.

شيء خارجي و سامي. و بعرض دولوز لموقف التيار العقلاني حول المسائل ذاتها التي طرحت على التيار التجريبي، يتبيّن للقارئ أن لا فرق في الطرح و الرؤية بين التيارين في نظر كانط ، و بمقتضى قراءة دولوز بالطبع. إنّ غرضا ما هو تمثل يحدّد الإرادة. فمدام التمثل شيء خارج الإرادة، فلا يهم كثيرا إن كان حسيّا أو عقليا. في مطلق الأحوال، التمثل لا يحدد الاقتدار، إلا بالرضا المرتبط بالموضوع الذي يمثله، اعتبرناه تمثلا حسيّا أو عقليا:" الشعور بالمتعة الذي به يُشكّل المبدأ المُحدد للإرادة.. هو من نوع واحد، ليس فقط لكونه لا يمكن أن يُعرف إطلاقا إلاّ بصورة تجريبية، بل كذلك بوصفه يتناول قوة حيوية واحدة"[10] أما قول كانط هذا – المقيّد في نقد العقل العملي - و الوارد في كتاب دولوز، المترجم من قبل الأستاذ أسامة الحاج. فيعرّبه الأستاذ غانم هنا – مترجم مؤلف كانط نقد العقل العملي – كما يلي :" إنّ الشعور باللذة الذي به فقط تكون تلك في حقيقة الأمر السبب المعيّن للإرادة ... هو مع ذلك من النوع الواحد عينه، ليس فقط من حيث يمكن التعرّف عليه دائما تجريبيا فقط، بل أيضا من حيث أنّه يؤثر على القوة الحيوية الواحدة عينها"[11].

يُشْهر كانط نقده في وجه العقلانية، عندما يُصرّح بأنّ الأغراض الساميّة ليست فقط غايات العقل، إنّما عندما يؤكد العقل على هذه الأغراض، إنّما يؤكد نفسه. ففي حالة أغراض العقل، العقل يرى نفسه غرضا. و عليه يخلص دولوز بوجود مصالح – منافع – تُقرن بالعقل، في النسخة الأصلية لكتاب دولوز، فلسفة كانط النقدية، كتبت لفظة – intérêts – بشكل مغاير، و نحن نتساءل هل هناك سبب وجيه دفع بدولوز اعتماد هذه الكيفية في الكتابة، ما دلالة كلمة مصالح كلما اقترنت بالعقل، و هل معناها هو ذاته المعنى المتعارف المعهود، أم المعنى يختلف، الأمر الذي يرقى إلى درجة اليقين أنّ جيل دولوز بعد ذكره للكلمة، يكشف على أنها مطابقة للأغراض، ما دام يعترف بأنّ المصالح أو الأغراض الملحقة بالعقل، لا مسوغ لها خارج العقل. في رأي دولوز كانط يرفض مُقدما القرارات الأمبيريقية و المحاكمات الدينية و قول كانط الوارد في نقد العقل المحض، يدلل على ذلك. يعرّب الأستاذ أسامة الحاج ما جاء حجة في سياق الذكر على هذا المنوال :" إنّ كلّ المفاهيم بل كلّ المسائل التي يقترحها علينا العقل الخالص، لا تكمن في التجربة بل في العقل .. إن العقل هو الذي ولّد، وحده، هذه الأفكار في أحشائه و هو ملزم إذًا ببيان قيمتها أو بطلانها"[12] . و الأستاذ موسى وهبة مترجم كتاب كانط نقد العقل المحض، يقترح الترجمة التالية :" ذلك أنّ كلّ الأفاهيم، بل كلّ الأسئلة التي يقترحها علينا العقل المحض، لا تُقيم، إنْ صحّ القول، في التجربة بل هي بدورها في العقل و حسب... لأنّ العقل هو الذي ولّد هذه الأفكار من داخله، و عليه بالتالي أن يُبيّن مصداقيتها أو ترائيها الديالكتيكي"[13] . توجد ترجمة عربية ثانية للكتاب نفسه،

---

[10] -جيل دولوز، المرجع السّابق، ص 07 . هذه الفقرة أخذها دولوز من كتاب كانط نقد العقل العملي استزادة للتوضيح و التفسير.

[11] - إمانويل كنت، نقد العقل العملي، ترجمة غانم هنا الشاعر، المنظمة العربية للترجمة، ط1. لبنان. بيروت. تشرين الأول (أكتوبر) 2008، ص 73.

[12] - جيل دولوز، المرجع السّابق، ص 08.

[13] - عمانؤيل كنط،نقد العقل المحض، المرجع السّابق، ص368.

للأستاذ غانم هنا، ترجمة الفقرة أعلاه بهذا الشكل :" ذاك أنّ كلّ المفاهيم و حتى كلّ الأسئلة التي يطرحها علينا العقل المحض ليست متضمنة نوعا ما في التجربة بل فقط، هي في العقل بدورها... و في حقيقة الأمر العقل وحده، في داخله، ينتج لنفسه هذه الأفكار التي يطالب هو نفسه بأن يُقدّم حسابا عن صلاحيتها أو عن ظاهرها الجدلي"[14].على القارئ بعد هذا العرض للترجمات الثلاث استخلاص النتائج التي يراها مناسبة، -ينبغي التنويه على أنّ الترجمات الفرنسية للكتاب نفسه على الأقل الترجمتين التي بحوزتنا ليست متطابقة تماما، بل هناك بعض الاختلافات على مستوى اختيار الكلمات و على المستوى النحوي، بخصوص الفقرة المقيّدة أعلاه- ما قد يدرك أن كانط يؤكل للعقل وظيفة نقده هو في حدّ ذاته، بمعنى آخر أن العقل في لحظة من اللحظات أيقن بضرورة القيام بعمل موجه لذاته، لكي يدرك نفسه الإدراك الصائب أو المناسب، و متى أنجز هذا العمل، يتمكن حينئذ من مواجهة العالم الخارجي عقليا، عالم الأشياء الخارجية. و باعتماد هذا السبيل أو المنهج، تُحدد الطبيعة الحقيقية لمصالح أو أغراض العقل. و الوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الأغراض.

- ينتقل "دولوز" بعد هذا العرض إلى بسط الدلالة الأولى لكلمة ملكة بحسب كانط، فهي أولا عنده و كما يبدو لي، شيء ثابت أو ساكن، بينما التصور أو التمثل يحوز على طبيعة متحركة، تسمح بانبلاج دلالة الملكة المتغيّرة، بتغيّر أنواع العلاقات، و عليه، هناك ملكة فكريّة، يُجسدها تمثل، قد ارتبط بموضوع من وجهة نظر المطابقة، و هذا ما يُدعى ببساطة ملكة المعرفة. في المستوى الثاني يكون التمثل في علاقة عليّة مع موضوعه، و هذا ما يدعى بملكة الترغيب أو الإرغاب، و التي بفعل تمثلاتها تكون علة لواقع موضوعات تمثلاتها... في المستوى الثالث و الأخير حيث يكون التمثل في علاقة مع الذات، حينئذ نتكلم عن ملكة الشعور باللذة و الألم. بالنسبة "لكانط" و بمقتضى قراءة "دولوز"، فإنّ السؤال الذي ينبغي طرحه، ليس هل هناك لذة دون رغبة أو رغبة دون لذة، إنّما إن كانت هذه الملكات كل على حدا و كما هي معرفة ابتداء قادرة على بلوغ شكل أعلى؛ و تبلغ ملكة ما الشكل الأعلى متى تهيأ لها داخليا قانونا مُحرّكا، حتى و إن صدر هذا القانون عن علاقة ضرورية مع واحدة من بين الملكتين، و ببلوغ الملكة الواحدة الشكل الأعلى تحقق لها استقلالا. و كتب "كانط" الثلاثة تتصدى للأسئلة الثلاث: نقد العقل المحض – هل توجد ملكة معرفة عليا؟- نقد العقل العملي – هل توجد ملكة ترغيب عليا؟- نقد ملكة الحكم – هل يوجد شكل أعلى للذة و الألم؟ [لأمد طويل اعتقد "كانط" بعدم تحقق الإمكانية الثالثة] .

ملكة المعرفة العليا:

يُسيّر عنصر ملكة المعرفة العليا منطق مركب، جزء يخصصه دولوز لما ما قد نعهده من تصور لكيفية تشكيل المعرفة لدى العامة من الناس، الجزء الثاني ما يكون صائبا في موضوع ذاته، من زاوية نظر كانط بطبيعة الحال، فلكي نتمكن من إنشاء معرفة بخصوص شيء ما؛ فإنّ تصورا لوحده غير كاف لبلوغ هذه المعرفة، ينبغي علاوة على ذلك، أن ينشأ عنه تصورا غيره نظير له و قد ارتبط، فتعرف عليه. و النتيجة

[14] - إمانويل كَنْت، نقد العقل المحض، ترجمة غانم هنا، مراجعة فتحي المسكيني، المنظمة العربيّة للترجمة، الطبعة الأولى،لبنان،2013، ص 749.

المستفادة من هذا، بالنسبة لدولوز، تُفيد على أنّ المعرفة تركيب أو تأليف لتصورات. و تبيانا و تأكيدا لما ذكر أعلاه، لا يرى دولوز محيد من العودة إلى قول كانط و المتضمن لمثال توضيحي، فنحن نذهب إلى الاعتقاد بوجود خارج مفهوم ما أ موضوعا لا صلة له بهذا المفهوم، و على الرغم من ذلك نعتقد في الوقت نفسه ضرورة ربطه به، فنثبّت شيء ما في موضوع التصور هو غير متضمن في هذا التصور، غير أنّ هكذا تأليف يتبدى على هيئة شكلين:

الشكل الأول: بعديا متى تعلّق بالتجربة: مثال ذلك : " هذا الخط المستقيم أبيض" ههنا نحن بصدد التقاء تحديدين كيفما كانا: فكل خط مستقيم ليس أبيضا و الخط المستقيم الذي هو أبيض ليس كذلك ضرورة.

ملاحظة هامة : على الطلبة الذين لم ينجزوا بعد عملا، أقصد تحليل نص أو حتى كتابة مقالة فلسفية، أن ينجزوا ذلك العمل و بمقتضى منهجية معلومة سلفا؛ و متى أتموه،يرسلوه لي على هذا الرابط – mus.ghouzi@gmail.com بالتوفيق